د. ميلاد أبو سلامة المقرحي(*)

ملاحظات حول الحركات القومية في آسيا وافريقيا

ان اغلب الأبحاث والدراسات التاريخية التي نشرت حول موضوع القومية ومبدأ حقوق القوميات والشعوب اثناء القرن التاسع عشر، كانت في حقيقة الأمر كلها أو على الأقل أغلبها ذات علاقة بتاريخ شعوب أوروبا وخاصة أوروبا الغربية، ولم تشمل شعوب آسيا وافريقيا ويرجع السبب في ذلك إلى ادعاءات الغربيين بان شعوب آسيا وافريقيا غير قابلة للتقدم والتطور، فالافريقيون مثلا، في مجموعهم، من وجهة النظر الغربية طبعاً، بدون تاريخ وقد عاشوا لعدة قرون غارقين في بحر من التخلف والفوضى [1]، بالاضافة إلى ذلك فان تجاهل تاريخ شعوب آسيا وافريقيا يخدم بطريقة غير مباشرة مصالح وسياسة الدول الاستعمارية الاوروبية في ذلك الوقت، ومن ناحية اخرى ان رفض الدول الاستعمارية الغربية بما واجهته من مقاومة شديدة عند استعمارها للاقطار الاسيوية والافريقية ينهض كدليل واضح على وجود القوى السياسية المنظمة في تلك الاقطار قبل استعمارها.

ولكن إذا كان القرن التاسع عشر هو عصر القوميات بالنسبة لأغلب شعوب

(*) محاضر، قسم الدراسات التاريخية والاثرية، كلية الاداب والتربية، جامعة قاريونس، بنغازي.

(1) من المؤكد ان هذه نظرة غير عادلة للأفريقيين وللتاريخ الافريقي والحضارة الافريقية، وقد شعر المؤرخون والباحثون الغربيون بعدم عدالة وصحة هذه النظرة وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية عندما هبت رياح التغيير على افريقيا فسارعوا إلى الدعوة بالاهتمام بدراسة تاريخ وحضارة افريقيا وفهم المجتمعات الافريقية، انظر فوزي مكاوي «تاريخ البحث في تاريخ افريقيا» مجلة الكاتب العدد 184، يولية، 1976، ص 18-27.

اوروبا فان القرن العشرين هو بحق عصر القوميات بالنسبة للشعوب الاسيوية والافريقية، وقد ظهرت هذه القوميات الحديثة في الوطن العربي وفيتنام والهند والصين وايران وتركيا وغانا ونيجيريا وغيرها من بلاد آسيا وافريقيا، هذه القوميات لم تتبع في تطورها خط تطور القوميات الغربية، لأنها ذات شكل جديد وفلسفة جديدة، وذلك يرجع اساساً إلى أن الاوضاع والظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي نشأت فيها كانت ظروفاً واوضاعاً جديدة لم تعرف في اوروبا في القرن التاسع عشر.

ان الحركات القومية في آسيا وافريقيا بشكل عام وفي الوطن العربي بصورة خاصة قد بدأت برد فعل طبيعي ضد الاستعمار الغربي ومقاومته في الداخل والخارج [1]، وتعتبر القومية في آسيا وافريقيا قوة تقدمية وهي ايضا عامل حسم وعامل ثورة وليست بعامل تراكم للمصالح البورجوازية والرأسمالية كما حدث للقوميات في أوروبا، ويعتقد بعض الباحثين أن فكرة القومية دخلت العالم الثالث عن طريق مثقفين متأثرين بالثقافة الغربية من أبناء الطبقات الوسطى، إذا صح هذا الرأي – وهو غير صحيح – فان افكار هؤلاء ستظل غريبة عن الجماهير وبعيدة عن الواقع، واقع المجتمعات الاسيوية والافريقية، بالاضافة إلى كونها لا تتلاءم بالضرورة مع طبيعة تطور الأحداث في آسيا وافريقيا وذلك لأنها تتعامل مع مقولات فلسفية وأيديولوجية. [2]

لقد نشأت القوميات الأوروبية في واثناء صراعها مع البورجوازية والاقطاع والأنظمة السياسية الملكية المحافظة، بالاضافة إلى ذلك فان النزاع المسلح والسياسي بين الكنيسة والملوك في أوروبا قد مهد الطريق لنشأة القوميات الحديثة في أوروبا، والمتابع لتاريخ الظاهرة القومية يلاحظ بوضوح ان نشأة القومية في

---

(1) الحركة قد تكون حركة سياسية أو اجتماعية، والحركة هنا تعني محاولة شعب ما بلوغ هدف لم يتحقق بعد، وكون الحركة قومية يعني أنها تؤمن بفكرة القومية ويقودها قوميون.

(2) انظر القومية العربية في الفكر والممارسة: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1980، ص 60-64.

اوروبا قد اقترنت باكتمال تكوّن الأمم الأوروبية منذ القرن السابع عشر الميلادي في حين نشأت القوميات في آسيا وافريقيا وتطورت خلال عمليات النضال الطويل والمديد والشديد الذي خاضته ولازالت تخوضه الشعوب الاسيوية والافريقية ضد الاستعمار الغربي.

النموذج الاوروبي إذاً غير صالح للبلاد النامية في العالم الثالث، لأن القوميات في آسيا وافريقيا (وامريكا اللاتينية ايضا)، قد نشأت في ظروف مختلفة تماماً عن الظروف التي نشأت فيها القوميات الأوروبية، الحركات القومية في آسيا وافريقيا قد نشأت في ظل تاريخ خاص قوامه استعادة شعوب آسيا وافريقيا تكاملها ووحدتها واستقلالها وحريتها وقد قامت ليس من أجل التخلص من الاستعمار وتقديم ثقافة قومية جديدة بل هدفت ايضا إلى ما هو أبعد من ذلك، أقصد اقامة نظام سياسي متين هدفه دفع كل القوى الوطنية للتخلص من التخلف الاجتماعي والاقتصادي وهذا وحده كاف لقيام نظام قومي أو على الأقل يعطي الشرعية لقيام مثل ذلك النظام، ان مشاكل شعوب افريقيا وآسيا تكمن في مسألة التحرر الوطني والنهوض والتقدم، وهذا لا شك يعتبر مبرراً وسنداً تاريخياً هاماً لهذه القوميات التي ناضلت ومازالت تناضل من أجل الاستقلال الحقيقي والحرية والتقدم، وفي سبيل هذه الغاية وقفت القوى الشعبية في كل من اقطار افريقيا وآسيا وراء القادة القوميين الذين قاوموا بكل عنف وجدية السيطرة الأجنبية العسكرية والاقتصادية والسياسية والثقافية، ومن امثال هؤلاء القادة «سن يات سن» و«ماوتسي تونج» في الصين و«هوشيمنه» في فيتنام و«أحمد سوكارنو» في أندونيسيا و«غاندي» و«جواهر لال نهرو» في الهند و«محمد علي جناح» في الباكستان و«جومو كنياتا» في كينيا و«بياتريس لومومبا» في الكونغو و«كوامي نكروما» في غانا و«أحمد بن بله» و«جمال عبد الناصر» و«معمر القذافي» في الوطن العربي وغيرهم من القادة القوميين في آسيا وأفريقيا.

يبدو لي أن الحركات القومية في افريقيا وآسيا جمعت بين الاعتزاز بالقومية ومكافحة الاستعمار، فقد تطورت هذه الحركات بصورة مباشرة بفضل المقاومة،

وبصورة غير مباشرة بفضل الشعور القومي والكبرياء القومية، ان القومية، في اعتقادي هي أهم ما حدث بالاقطار الافريقية والاسيوية من التطورات اثناء القرن العشرين كما سبق ان أوضحنا في هذا المقال وكثيراً ما يشير الكتاب الأوروبيون إلى ان الشعوب الافريقية والاسيوية لم يكن لديها أي شعور بالقومية قبل اتصالها بالشعوب الأوروبية، لا شك ان هذا النقد يقوم على قراءة التاريخ قراءة سطحية ويتجاهل حقيقة قامت في أوروبا نفسها، وهي أن مبدأ أو فكرة القومية لم تتطور إلا نتيجة لمقاومة التوسع الفرنسي النابليوني [1]، فقبل الثورة الفرنسية 1789 كانت الدول الأوروبية ذات قوميات متعددة، ففرنسا مثلا أشد الشعوب الأوروبية اتحاداً، بلغ من ضعف اهتمامها بالمذهب القومي انها كانت حتى سنة 1830 تأمل في ان تضم بلجيكا إليها. [2]

لقد تطور الشعور القومي الحديث في أوروبا الغربية بشكل خاص اثناء حروب 1792-1815 وانتشر وساد في فرنسا ابتداءاً من سنة 1792، عندما أضحت الوطنية مرادفاً لدعم الثورة ضد الاعداء في الداخل والخارج، وقد بلغ هذا الشعور درجة قوية في ألمانيا واسبانيا وبريطانيا كما أمتد إلى ايطاليا وغيرها من الاقطار الاوروبية ولكن بصورة أخف، بسبب الحقد على فرنسا الثورية والخوف منها، ومن دراسة تاريخ الصراع المرير بين فرنسا من ناحية وروسيا وبروسيا من ناحية أخرى، يمكننا ان نستنتج أن محاولة تدمير أمة لارغامها على الخضوع والاستسلام يخلق، في الواقع، إستراتيجية قومية مضادة، فالشعور القومي الحديث الذي نتج عن الثورة الفرنسية في الخارج ارتد ضد فرنسا نفسها. [3]

وقد وجدت حركات أخرى تنشد الاصلاح الاجتماعي والسياسي ولكن هذه

---

(1) ك، م، بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة 1962، ص 508-510.

(2) المصدر السابق، ص 508.

(٤) نديم البيطار، من التجزئة .. إلى الوحدة: القوانين الاساسية لتجارب التاريخ الوحدوية (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1980)، ص 158.

الحركات قد سارت في طريق آخر وهو طريق الثورة على الماضي بكل نظمه وتقاليده البالية وتراثه السقيم وتدعو إلى الثقافة والحضارة الغربية وإلى النظم السياسية الليبرالية الغربية، مثل هذه الحركات باءت بالفشل ولكن لماذا؟ ان فشل هذه الحركات يرجع أساساً إلى كونها قد تناست أو ربما تجاهلت جذور الأمة التاريخية التي لا غنى عنها من أجل النهضة القومية، وقد كان من الضروري أن تستمد هذه الحركات القومية الناشئة القوة من تاريخها وماضيها البعيد وان تعمل على الوصول إلى الحل العملي والحقيقي الذي يتفق ويتلائم مع ظروف وأوضاع شعوب افريقيا وآسيا الاجتماعية والاقتصادية والذي يتلاءم مع تاريخها وتراثها ومع متطلبات التطور العلمي الحديث ذلك التطور العلمي الذي تأخرت عنه آسيا وافريقيا بمراحل طويلة.

ثم نشأت حركات أخرى تمتاز بالاعتزاز بالقومية وتمجيد التراث القومي من ناحية، وفيها قبول وأخذ الحذر من الغرب على نطاق كبير من ناحية أخرى، وكان من الضروري ان يندمج ويتفاعل هذا بذاك، وذلك لأن هذه الحركات القومية كانت تستنبط من الماضي وتستمد من الحاضر ولكنها ليست صورة تامة من الماضي ولا نسخة كاملة من الغرب، وإنما هي حركات جديدة متطورة أصيلة وخلاقة، ولكن كما يبدو واضحاً فيها تركيز ملحوظ على التراث القومي، فقد أصبح التراث القومي رمزاً للعزة القومية والأصالة القومية ووسيلة للتعبير عن المشاعر القومية. (1)

فقد كانت الحركة القومية الهندية مثلا تؤكد هندية الشعب وهندية رابطة التاريخ المشترك في الهند ورابطة الحضارة والثقافة الهندية، وقد حدث بالمثل في اليابان حيث التركيز على وحدة التاريخ الفريد المتواصل الحلقات، وفي الصين أصبح شعب «الهان» الأساس الذي تقوم عليه القومية الصينية الحديثة وهذه الأمثلة تؤكد حقيقة هامة وهي لا وجود لشعب ليس له تاريخ مشترك.

---

(1) ميلاد أبو سلامة المقرحي «الأصول التاريخية للقومية العربية»، مجلة الثقافة العربية العدد 11، السنة 11 (نوفمبر، 1984)، ص 11-15.

وينبغي ألا يغيب عن البال أن هذه الحركات القومية الجديدة ثبتت جذورها في ظل الاستعمار الغربي الذي أذل وحارب القوميات الافريقية والاسيوية واستعبد شعوبها، فالمعاناة المشتركة لمحنة الاستعمار قد خلفت أساساً سياسياً واحداً بين الاقطار الافريقية والاسيوية، ذلك لأن هذه الاقطار جميعاً قد مرت بنوع واحد من المعاناة وقاتلت في نوع واحد من المعارك والتقت بنوع واحد من العدو، وقد سار هذا التطور القومي المتجه نحو الحرية السياسية في خطوط متوازية بوجه عام، مع ملاحظة ان هذه الحركات القومية تتسم احياناً بطابع العداء الشديد للاستعمار اكثر من اتسامها بالطابع القومي وهذا يبدو واضحاً اكثر في موقف القوميين الافريقيين، فالقوميون الافريقيون تميز موقفهم بالعداء المشترك ضد الحكم الاجنبي وهم طبعاً لا يلاموا على ذلك.

وقد تدخلت الدول الأوروبية وخاصة بريطانيا وفرنسا تدخلا عسكريا لضرب هذه الحركات القومية وقد أدى ذلك إلى دفع تلك القوميات إلى أن تعمل بجدية من أجل تصفية الحساب مع دول اوروبا الاستعمارية [1]، فقد تحدى اليابانيون القوة الأوروبية واوقعوا بها الهزيمة وثار الفيتناميون ضد الاستعمار الفرنسي ومن بعده الامريكي، وقامت ثورة الجزائر وصفت الحساب مع فرنسا الاستعمارية، وقامت ثورة الثالث والعشرين من يوليه في مصر العربية وصفت الحساب مع الاستعمار البريطاني ودفعت بحركة القومية العربية خطوات واثقة إلى الأمام، ثم قامت الثورة العربية الليبية التي صفت الحساب مع بقايا الاستعمار البريطاني والامريكي.

ان القوميات الافريقية والاسيوية إنما هي رد فعل واع ونشيط متحرك وخلاق للنهضة والتقدم وهدام للاستعمار القديم والجديد على السواء بكل مظاهره السياسية والعسكرية والفكرية والاقتصادية، ان الصفات التي تمتاز بها هذه القوميات لم تنشأ من مجرد نظريات سياسية ومبادىء قومية، وإنما نبعت من الاوضاع والظروف الاجتماعية والاقتصادية التي كانت ولا تزال تحيط بهذه الحركات

---

(1) ميلاد أبو سلامة المقرحي، المرجع السابق، ص 11-15.

القومية، والتي تتمثل ايضا في الخطر الخارجي ومقاومة الحكم الأجنبي والتخلف الاجتماعي والاقتصادي في الداخل، في كل جزء من افريقيا وآسيا ثارت الشعوب الافريقية والاسيوية ضد الاستعمار والأنظمة السياسية المتحالفة معه، وأسسوا أنظمة قومية مستقلة، وكان ذلك بالطبع نتيجة للشعور القومي ومكافحة الاستعمار ووجوده في أرض كانت أصلا مستقلة حتى ولو كانت غير منظمة تنظيما سياسيا بالمفهوم الحديث. (1)

في السادس من مارس سنة 1957 أصبحت غانا دولة مستقلة وقد اعتبرت غانا بالنسبة للأغلبية العظمى من الافريقيين أول دولة افريقية غير عربية مستقلة في حين لم ينظر إلى اثيوبيا وليبيريا من خلال ذلك المنظار، وذلك نظراً لأن الأولى كانت منعزلة عن باقي اجزاء القارة الافريقية في حين ان ليبيريا كانت تعتبر من الدول الافريقية الهامشية التي تدور في فلك الولايات المتحدة الامريكية، وهكذا فان مولد غانا المستقلة كان بداية نهاية الاستعمار الأوروبي في القارة الافريقية وقد اعلن كوامي نكروما في أكثر من مناسبة بان استقلال غانا ليس إلا خطوة نحو تحرير افريقيا كلها من الاستعمار والسيطرة الأجنبية، وقد ترددت أصداء كلماته في كل جزء من اجزاء افريقيا بالاضافة إلى ذلك فقد كان استقلال غانا ايضا بمثابة بداية مرحلة حاسمة في نشاط الدعوة إلى الوحدة الافريقية الشاملة بازالة جميع اشكال الحكم الاستعماري في القارة ومد نطاق الاستقلال إلى جميع أنحاء القارة. (2)

ومن ناحية أخرى لقد منح استقلال الكونغو سنة 1960 آمالا جديدة للافريقيين ولقد كانت الكونغو، في الواقع هي التي منحت الحركة الافريقية الواحدة انتصارها الكبير، فقد كان «بياتريس لومومبا»، الزعيم الكونغوي يعرف ويحس بآلام

---

(1) في سنة 1950 كانت توجد في افريقيا أربع دول مستقلة فقط وقد ارتفع هذا الرقم إلى 40 دولة في سنة 1975.

(2) رولاند أوليفر، موجز تاريخ افريقيا، ترجمة دولت أحمد صادق (القاهرة، 1965)، ص 270-272، جون هاتش، تاريخ افريقيا بعد الحرب العالمية الثانية، ترجمة عبد العليم السيد منسي (القاهرة، 1969)، ص 202-204.

الافريقيين التي ذاقوها على يد العالم الخارجي وهو الذي تبنى فكرة افريقيا للافريقيين.

وهكذا دفعت انتصارات حركات التحرر القومي في افريقيا وآسيا القوميات الافريقية والاسيوية إلى شروط جديدة، فبعد ان وجدت هذه القوميات الوعاء الاساسي لها، وصارت هذه القوميات تعبيراً عن كيانات سياسية حقيقية وموجودة، اندفعت اقطار افريقيا وآسيا نحو النضال من أجل الوصول إلى كيانات قومية سياسية متينة ومن أجل حياة اجتماعية واقتصادية جديدة، فالثورة السياسية لاستقلال افريقيا وآسيا قد أزالت، في الواقع، الحكم الخارجي وقد أستخدمت هذه الثورة لتحذر جميع القوى الخارجية بايقاف تدخلها في القارة الافريقية والاسيوية.

لقد حققت الشعوب الافريقية والاسيوية انتصارات باهرة في الطريق القومي نتيجة مواجهة حادة بينها وبين شعوب اخرى كانت تمثل الاستعمار الحديث، فقد دفع الاستعمار بهذه الشعوب إلى تجاوز الارتباطات المحلية من أجل الارتباط بهويات قومية خاصة.

المرحلة الأولى في ظهور وتطور الهوية القومية في آسيا وافريقيا كانت، إذاً، تتمثل في مقاومة مشتركة للخطر الخارجي، فالحركات القومية في آسيا وافريقيا كانت اساساً حركات قومية وثورية ضد الحكم الخارجي، والمطالبة بحق تقرير المصير كانت تبدأ عادة كحركة دفاعية ضد خطر خارجي أو سيطرة خارجية، وعلى هذا الاساس يمكن ان نقول ان اليقظة القومية في آسيا وافريقيا كانت تعود إلى الخطر الخارجي والكفاح ضد السيطرة الخارجية، والقومية في آسيا وافريقيا تشارك القوميات الاوروبية في كونها كانت تعبر عن رغبة في الخلاص من الحكم الاجنبي.

ان فكرة الهند كدولة قومية تعبر عن القومية الهندية قد أستمدت قوتها ووعيها لذاتها وهويتها القومية من النضال الطويل ضد استعمار البريطاني للهند، وعي الهند بهويتها القومية الواحدة، إذاً كان نتيجة صراعها الطويل من أجل التحرر من الاحتلال البريطاني، قبل هذا لم تكن الهند ألبتة موحدة بشكل عام، بل كانت

تجمعاً جغرافياً من إمارات وممالك ومناطق قبلية ودويلات صغيرة وكبيرة، فالاحتلال البريطاني هو الذي أخضع الهند لادارة سياسية واحدة.

ان الهوية القومية، إذاً، كانت ترتبط بالخطر الخارجي إلى حد كبير، أي بقرار حاسم يتخذه الشعب في مواجهة عدو خارجي، ذلك القرار كان دائما مرتبطاً بدوافع ومخاوف وآمال القوميين الاسيويين والافريقيين، وأخيراً ينبغي ان نلاحظ ان فترة الاستقلال في اقطار آسيا وافريقيا تؤكد على أن إحدى المشاكل الاساسية هي في كيفية المحافظة على الوحدة السياسية التي كانت سائدة في مرحلة النضال ضد الاستعمار وضد الخطر الخارجي لأن زوال الخطر الخارجي كان عادة يؤدي إلى زوال الضغوط التي كانت توحد هذه الحركات القومية في أرضية واحدة.